خطبة الجامع الأموي لفضيلة الشيخ مأمون رحمة

١٠ من ربيع الآخر ١٤٣٦ هـ / ٣٠ من كانون الثاني ٢٠١٥ م

الحمد لله رب العالمين، الحمد لله حق حمده، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمّداً عبده ورسوله وصفيه وخليله، اللهم صل وسلم وبارك على نور الهدى مُحَمَّد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وارضَ اللهم عن الصحابة ومن اهتدى بهديهم واستنّ بسنّتهم إلى يوم الدين.

من اعتمد على علمه ضلّ، ومن اعتمد على عقله اختلّ، ومن اعتمد على سلطانه ذلّ، ومن اعتمد على ماله قلّ، ومن اعتمد على الناس ملّ، ومن اعتمد على الله، فلا ضلَّ ولا قلَّ ولا ملَّ ولا ذلَّ ولا اختلَّ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

عباد الله، أوصي نفسي وإياكم بتقوى الله عزَّ وجل، واعلموا أنكم ملاقوه وبشر المؤمنين.

يقول المولى ﷻ في محكم التنزيل مخاطباً الحبيب الأعظم: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] روى الحاكم عن سيد الخلق الناطق بالحق أنه قال: ((إنما أنا رحمة مهداة)).

أيها الإخوة: إن العنصر الأصيل في عظمة مُحَمَّد ﷺ هو الرحمة، الرحمة التي تجعل الإنسان يرق للناس أجمعين، بل يَرق لكل ذي كبد رطبة، والتي تجعله يَتصل بالحياة وفي نفسه عواطف غامرة من العطف والشوق والسلام، فهو لين الجانب لمن حوله، سليم الصدر لمن خاصمه، يتمنى عودته وأوبته أكثر مما يرجو تأنيبه وعقوبته.

لقد كان مُحَمَّد ﷺ معيناً لا ينضب من الرحمة والبر العميق بالناس، فهو يَهش لحاضرهم ويَتفقد غائبهم، ويفرح لسرورهم ويَبكي لأحزانهم، ويَعيش مع كل امرئ مِنهم وكأنه له صديق العمر، وهذه الدعامة المتينة لا بد منها في بناء كل عظمة إنسانية صحيحة، ولذلك قال الله لرسوله ﷺ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

لقد كان مُحَمَّد ﷺ جياش الفؤاد بهذه الرحمة السامية النبيلة، فكان إذا عرض الهداية على رجل فأعرض عنها وأدبر عنها كان النبي الكريم ﷺ يَنظر إلى هذا الشقي الفار عن الخير نظرة الوالد الرفيق إلى ابنه العاق الذي آثر العِوج على الاستقامة، أي أن أساه لغباوة ابنه أكثر من غضبه لصدوده عن الحق، هذه هي صفة النفوس العظيمة الرحيمة، لا تعرف إلا الخير والسعادة للآخرين، وقديماً قال عنترة:

لا يحمل الحقد من تعلو به الرتب ولا ينال العلا من طبعه غضب

كم طالت أحزان الرسول ﷺ لجهالات الناس، حتى خُشي منها على نفسه وعلى رقة فؤاده وإرهاف حِسّه، فقال الله له: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦] مع أن القرآن تهدد هؤلاء الأجلاف العاقين لأبر الناس بهم، ﴿طسم * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ [الشعراء: ١-٤] لكن هذا التهديد لما أوشك أن يتحول إلى لعنة ماحقة بعدما آذى المشركون نَبيهم واستباحوا دمه، وقتلوا أصحابه في غزوة أحد، وعُرض على النبي ﷺ أن ينتقم منهم، فقال: ((اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون)) وقد أشاد القرآن العظيم بهذا الخلق العظيم في شمائل صاحب الرسالة، فَبَيَّن للناس كيف أن عنتهم يعز عليه، وكيف أنه متشبث بهم حريص عليهم، بالمؤمنين رؤوف رحيم.

يا سادة: هناك فارق كبير بين النفوس الخيرة وبين ذوي الطبائع الشرسة الحقودة التي تسعى وراء الشر وتتوق إلى حياكة المكائد وتأجيج العداوات، وترى لَذَّتَها في الدم المسفوح والعبرات المراقة والوجوه الكئيبة، وكم في الدنيا مِن مَشاعل حُروب ومشاعل فتن، ولكن رسل الله أجمعين وحواريهم الأمناء أبعد الناس عن هذه الميادين الخسيسة، حَيث مَدح اللهُ مُحمداً ﷺ وصحبه بقوله سبحانه: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] إنك كآبة المنظر في الأهل والمجتمع أَلقت على نفس النبي الرحيم ظلالاً مُحزنة، وقد كان لرقة مشاعره يُحس بوخز الآلام إحساساً مضاعفاً، وتلك ضريبة العظمة البالغة شاء الله أن يَفرضها عليه وحده، ولن يستطيع أداءها إلا عظيم مثله.

كان النبي ﷺ أكثر ما يَتأثر يتأثر بحال اليتامى، فكان يُحسن إليهم ويوصي بكفالتهم والإحسان إليهم، وبَيَّن فضل ومكانة هذه الأعمال، فقد روى الإمام مسلم أن رسول الله ﷺ قال: ((كافل اليتيم له أو لغيره ألا وهو كهاتين في الجنة)) أشار بالسبابة والوسطى، وإن أولى الناس بالعطف والتكريم والرحمة هم أبناء الشهداء، الذِين ضَحُّوا بأنفسهم دفاعاً عن أوطانهم وعن أبناء أوطانهم، بل حث النبي الأكرم ﷺ إلى أن نَدعمهم ونقف في جانبهم، فقد روى البخاري ومسلم أن رسول الله ﷺ قال: ((من جهز غازياً في سبيل الله فقد غزا، ومن خلف غازياً في أهله بخير فقد غزا)).

إن الشهيد رَجل عَرف كيف يعيش وكيف يموت، كان يُمكن أن يكون بشراً صَغيراً كسائر البشر، أما بعد أن اتصل بالحقيقة العُليا وربط وجوده المحدود بالوجود المطلق، ونَسي نفسه حين ذكر ربه، وركل الأرض حين تتطلع للسماء، وبصق على الدنيا حين عُرضت عليه الآخرة، فقد أصبح يُخلق في كون آخر عليه من إجلال الله وآلائه نُضرة وضِياء وخُلود، فإذا مَشيت في أرض الشهداء فامشِ وَئِيداً أمام القبور المتراصة الهادئة في ذلك الوادي الصامت، طَأطِأ الرأس إجلالاً، وتحدث همساً، وادلف إليهم في خشوع وأدب، في مقابر الناس تَشتَمُّ رائحة البلى، أما في مقابر الشهداء فلا تشم إلا رواح الخلود، وما هذي الأزهار المنثورة والأغصان المتهدلة والأشجار الباسقة، ما أجمل هذا الصنيع أن تغرس حديقة زاهرة فوق قبور الشهداء وما حولها، أترى هذا الورد الأحمر قد ارتوى من دمائهم، وهذه العُطور الفواحة قد نفحت من شمائلهم، أم شاء الله أن يَجعل أبصارنا تقع على هذا البُستان النضير لِيُعطينا فكرة محدودة عن الجَنَّة اليانعة الناعمة التي يَمرح فيها شهداءنا الأبرار، فكأن الأديم الذي نسير عليه مرآة عكست ما تحتها من نعيم مقيم، فالوطن لن يَجحد أولئك الأبطال ولا أبناءهم، إنما سَيَجحد الوطن التجار الناشدين للغلاء، البَعيدين عن الإحساس بالآخرين، المستغلين لظروف الناس، سيجحد الوطن الأطباء الذين حولوا مِهنتهم الإنسانية إلى مهنة تجارية، وسيجحد الوطن الموظفين البَاحثين عن الترقيات، وسيجحد الوطن الطلاب المصروفين عن العلم والمعرفة، والشبان المتعلقين بالشهوات والأهواء، لا جَرم أن فُقدان الرحمة بين الناس فُقدانٌ للحياة الهانئة وإحلال للجاهلية الجهلاء والأثرة العمياء.

إن قضاء حوائج الناس والرأفة والرحمة بهم تُوصلك -أيها الإنسان أيها المسلم- إلى شفاعة رسول الله ﷺ ،كيف لا وقد قال عليه الصلاة والسلام: ((من قضى لأخيه المسلم حاجة كنت واقفاً عند ميزانه، فإن هو رجح وإلا شفعت له)) هذه هي الرحمة، عندما نكون متعاونين متعاطفين متراحمين، نَشعر بشعور بعضنا ونتألم على ألام بعضنا، فهل تجد الرحمة عند أصحاب الطمع والاحتكار؟ أم تجدها عند أصحاب القلوب الذين جفت من الخير كما تجف الأرض عندما ينقطع عنها خير السماء.

إن الرحمة التي جاء بها مُحَمَّد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه كان للبهائم نَصيب كبير منها، فقد روى أبو داود وابن خزيمة في صحيحه، عن سهل ابن الحنظلية قال: مر رسول الله ﷺ ببعير وقد لحق ظهره ببطنه -أي ضمر من شدة الجوع- فقال النبي ﷺ: ((اتقوا الله في هذه البهائم، فاركبوها صالحة وكلوها صالحة)) وعن أبي مسعود -فيما رواه أبو داود- قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفرنا، فمضى لحاجته،

فرأينا حُمَّرَة معها فرخان، فأخذنا فرخيها، فجاءت الحُمَّرَة -طائر صغير- فجاءت الحمرة فَجعلت تُعَرِّش -أي ترتفع وتنخفض- فقال النبي ﷺ: ((من فجع هذه بولديها؟ رُدُّوا ولديها إليها)).

هذه الحرب التي شُنَّت علينا باسم الحرية باسم الديموقراطية، كان الشعب يَعيش في أمان واستقرار، كان كل مِنَّا ينام في داره آمنا على نفسه وأهله وعرضه، لكن هذه الحرب التي شُنت علينا باسم الحرية والديموقراطية والتغيير أدخلت الأسى والحزن إلى قلوب الكثير من الناس، إلى قلوب الآلاف من هذا الشعب العظيم، كم هناك -يا سادة- من أب يبكي في ليله ونهاره، يَبحث عن ولده ولا يعرف أين هو، مصير مجهول، كم هناك مِن زوجة تَبكي، تَبحث عن زوجها ولا تَعرف أين هو، مصير مجهول، كم هناك مِن أم تبكي، تبحث عن ولد لها لا تعرف أين هو، مصير مجهول، فهل فقد المسلمون والعرب الرحمة من قلوبهم؟ هل جاء نبيهم ﷺ بالقسوة أم بالرحمة؟ إذا كان مُحَمَّد بن عبد الله ﷺ لم يرض لِفَرخين أن يَبتعدا عن أمهما، فكيف نرضى نحن لأنفسنا أن نَعيش على الخطف والقتل والظلم والعدوان، تحت عنوان الحرية والديموقراطية، أَيُّ رحمة نَدَّعِيها يا سادة؟ أي إيمان نَدعيه بالنبي ﷺ ونحن أبعد الناس عن هذه الرحمة التي ربما لا نَشتَمُّ ولا نَعرف رائحتها.

منذ يومين كنت أقرأ أن طفلة رضيعة أُلقيت في حاوية القمامة بالريف الغربي من مدينة دمشق، لم يتجاوز عمرها الشهر، أُلقيت في حاوية القمامة، جِسمها الغض الطري تيبس من شدة البرد، ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨-٩] أين الرحمة؟ ما ذنب هذه الطفلة التي أُلقيت في حاوية القمامة، لتموت بين الأوساخ والروائح الكريهة؟ أي رحمة وصلنا إليها؟ أي رحمة ندعيها يا سادة، في الوقت الذي نجد أعدائنا يتكالبون علينا في ليلنا ونهارنا، ما أحوج الأمة اليوم إلى التراحم، إلى أن نكون متراحمين حقيقيين، إلى أن نَشعر بشعور بعضنا البعض، وأن نَتألم لآلام بعضنا البعض، كم هُناك مِن إنسان مُشرد يَفتقر إلى شيء من الدفء اليسير يأوي إليه زوجته وأولاده، هذا التهجير الذي نعاني منه ما نعاني، هذا الغلاء الفاحش الذي نعاني منه ما نعاني، مع فقدان للأمن والأمان، أين الرحمة إذاً، ونحن الذين صنعنا ذلك بأيدينا، مَن كان يجهل ذلك فليعلم، نَحن الذين صنع ذلك بأيدينا، نحن مَن عملنا على خراب الوطن، بالكلام الثرثرة التي لا فائدة فيه هيجنا وحرضنا، بالكلام الثرثرة التي لا فائدة فيه إلا لصالح إسرائيل، عملنا على دمار بعضنا البعض، عملنا على سرقة بيوتنا، عملنا على اختطاف بعضنا البعض، عملنا على قتل بعضنا البعض، عملنا على تشريد بعضنا البعض، نحن مَن فَعل ذلك ببعضنا البعض.

أما المقاومة اللبنانية تَقول للعرب وللمسلمين جميعاً: تعالوا لنكون رحماء فيما بيننا، أشداء على بني صهيون، تعالوا يا عرب لنكون رحماء فيما بيننا، أشداء على بني صهيون، العرب يتقاتلون مع بعضهم البعض، والمقاومة اللبنانية المتمثلة بقائدها العملاق أحفاد الإمام الحسين يُوجهون الضربات القاسية الموجعة للكيان الصهيوني، لِكَي يَقولوا لكل صهيوني مُرتزق ولنتنياهو: "لا راحة لكم هنا في فلسطين ما دامت المقاومة قائمة، وما دام كل عربي شريف يَعرف قيمة المقاومة، ويقف إلى جانب المقاومة".

يا سيد حسن، يا إمام المجاهدين، يا عملاق التاريخ: لقد رفعت رؤوسنا عالياً، وأعدت للأمة العربية والإسلامية عزتها وكرامتها، أنت والقائد الفذ بشار الأسد والقائد المقاوم حسن روحاني، أنتم مَن يُعيد لنا فلسطين والأقصى، أنتم من يعيد لنا جولاننا الحبيب، أنتم مَن يحرر لنا لواء اسكندرون، وسَنَمضي خلفكم أيها العملاقة الثلاثة، سنَمضي خلفكم ونحن نُؤمن بأننا مَشروع مقاومة ومشروع شهادة، لأن دمشق على مر التاريخ كانت بَلَدَ الأُسود والرجال، بلد العظماء والشرفاء، لن نركع لعدو مغتصب محتل، وستبقى المقاومة اللبنانية تَدُكُّ بصواريخها العملاقة أوكارهم الخبيثة، حتى يعيشوا دائماً في ذعر وخوف، كما هو حالهم الآن واليوم.

إن المقاومة اللبنانية أسقطت الوهم الذي يَعيشه اليهود، والذي كانوا يُعَيِّشُونَه بعض العرب الذين كفروا بالله وآمنوا بِزَيدٍ وَعَمر: "إن إسرائيل قوة لا تقهر" ها هُم كالجرذان يُسحقون تحت أقدام المقاومة، وإن هذه الرسالة كأنني أشتم مِن قائد الوطن السيد بشار الأسد يَقول لبني صهيون: مهما فعلتم في وطني وفي أرضي، ومهما اعتديتم على شعبي، فأنا هنا أسد، وهيهات مِنَّا الذلة، وإن جيشي اليوم أقوى مما تعرفونه سابقاً، فالويل لكم مِن غضبي إن ثار غضب البركان، إن ثار غضبي وبركاني، الويل لكم ثم الويل لكم، فاعرفوا حدود أنفسكم خيراً لكم.

إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو القى السمع وهو شهيد.

الخطبة الثانـ٢ــية:

الحمد لله رب العالمين، الحمد لله حق حمده، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن مُحَمَّداً عبده ورسوله وصفيه وخليله، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا مُحَمَّد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

عِباد الله اتقوا الله، واعلموا أنكم مُلاقوه، وأن الله غير غافل عنكم ولا ساه.

اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات، اللهم اسقنا الغيث ولا تجعلنا من القانطين، اللهم زدنا ولا تنقصنا وأعطنا ولا تحرمنا، اللهم اسقنا غيثاً مغيثاً هنيئاً مريعاً مريئاً سحاً غدقاً طبقاً مجللاً إلى يوم الدين، اللهم إنا نسألك أن تنصر الجيش العربي السوري، وأن تثبت الأرض تحت أقدامهم، وأن تكون لهم معيناً وناصراً، اللهم إنا نسألك أن تنصر المقاومة الشريفة الطاهرة في لبنان، اللهم إنا نسألك أن تُثبت الأرض تحت أقدامهم وأن تُسدد أهدافهم ورميهم يا رب العالمين، وأن تكون لهم معيناً وناصراً، اللهم وفق السيد الرئيس بشار الأسد لما فيه خير البلاد والعباد، وخذ بيده إلى ما تحبه وترضاه، واجعله بشارة خير ونصر للأمة العربية والإسلامية، سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.